

فكاهات

روايتها

عن عين الفقيه (١)

تأتي السعادة أحياناً من طريقٍ لا يهتدي إليها إنسان ولم تخاطر المخلوق
ببال كما يتبين من القصة التالية

روي أنه كان في باريس مصوِّرٌ يدعى جان قد أُوتي وهو في الثلاثين
من عمره مهارةً غريبةً في تصوير المناظر الطبيعية ولكنّه كان قليل البخت فلم
ينل لدى طلاب الصور شهرةً تعيدل حذاقته ولم يكافأ في المعارض بجائزة
يوسع بها نطاق عمله ولا بوسامٍ ينوّه بقدره ويتيح له مسابقة النظراء والانداد
فصغّر الفشل نفسه وخيب النحس أمله فهجّر المعارض وادمن العمل تاركاً
لذات الحياة معرضاً عن معاشرة الإخوان والخلان كأنه أحد النساءك أو
الرهبان . وكان حانوته في الطبقة الرابعة من بناءٍ نفيم يسكنه جماعة من
اهل اليسار لا يعرفونه لقلة خروجه من محله ولا هو يعرفهم اذ لا علاقة له
معهم فكأنه طائر له عشٌّ منفرد في إحدى زوايا سطوحهم . وكان يجد في
كثرة الشغل عزاءً وسلواناً ومنجاةً من اليأس والقنوط شأن كلّ شهم أبيّ
النفس تترفع به نفسه عن التدليس والمصانعة وتكره التذلل لادنياء النفوس

(١) معربة عن الفرنسية بقلم خليل افندي الجاويش احد منشئي جريدة الاهرام

وفي ذات يومٍ بينما كان جالساً لدى إحدى صوره وهو حزينٌ كاسف البال طرق بابهُ طارقٌ واذا بالداخل كاتب حسابات المحل الذي يتتبع منه ألوان التصوير فحسب عند ما رآه انه أت لاستيفاء حساب سيده فقطب وجهه ولكن الكاتب دنا منه وقال انني أريد منك حاجة صغيرة ان قضيتها لي صيرتني شاكراً فضلك مدى حياتي لكنني أرجو منك أن لا تهزأ بي ولا تستخف بطلبي . وذلك أن في البيت المقابل لنا فذة محلك هذا فتاة حسناء في مقتبل الشباب هي خادمة صاحبة المنزل قد شغفت بحبها حتى كاد عقلي يضيع ورشدي يطير وأريد ان اكتب اليها ابوح لها بسر غرامي ولكنني لا اعرف كيف اخط رسالة في هذا المعنى الدقيق تجتذب فؤادها وتميلها نحوني فترحم شبابي وتخفف عذابي . وقد قشيت في الكتاب المسمى « امين اسرار العشاق » عن رسالة ملائمة لحالي فلم أجده وخشيت ان اتقل لها رسالة لا تقدر على فهم معانيها فجئتك راجياً ان تكتب عن لساني رسالة افهمها بها قصدي واطلعها على حقيقة امري

فقال المصور انها لخدمة خفيفة هينة وتناول محفظة الورق واختار منها ورقة لطيفة وغلافاً ناصعاً وجلس الى مائدة صغيرة وعرك جبينه ثم كتب الرسالة على ما حضره ودفعها الى الفتى وقد كتب فيها ما يأتي

« ايها الملك الكريم

كيف ارى مثل جمالك الفتان ولا اهميم به جداً وكلفاً وكيف اذوب جوياً وغراماً ولا استميتح رقة فؤادك ان تعطيني على سقمي ولو بنظرة حب من عينيك الفاتنتين تحيي فؤادي وتنفي سهادي . انني لا اقدر ان

اصف لك مقدار ما اقا سي فيك من الرجد والهيام وقد غلبت الشوق
اشهرآ طوالاً حتى اعياني كتمانهُ فجئت ابوح لك بما يكنهُ ضيري والله
يعلم ان حبي لك حبٌّ طاهر وليس لي من امنيةٍ الا ان تشاطريني هذا
الحب ثم ان اشاطرك حظي من حياتي بل ان اجعل حياتي كلها وقفاً على
مسرّتكَ ورضاكَ وها اني اضع قلبي بين يديكَ وانت مخيرة بين ان
تبذيه وتتركه يحترق بناره وبين ان ترجمه وتطنّي لهيب اواره وحاشا
لك الا ان تقابلي هذا الحب بمثله والسلام»

فتناول التي الرسالة شاكراً وهروا بها مسرعاً الى بيت حبيبته ووقف
المصور ينظر اليه من النافذة فرآه يكلم البواب ثم ألقى في كفه قطعة من
الذهب وبعد ذلك قرع الباب فأتت الفتاة تترنح في مشيها ترنح السكرى
فحدّثها دنيهة وسلمها الرسالة فتناولتها وقد صبغ الجياء وجنتيها واقفل الباب
وانصرف طائراً فرحاً. واسرعت الفتاة الى غرفها فوضت الكتاب وقرأته
اولاً وثانياً وثالثاً وبعد ربع ساعة نزلت الى ردهة الاستقبال ويدها مكنسة
وشرعت تكنس بسرعة مخافة ان تعود سيدتها فتراها متأخرة في عملها فاصاب
طرف المكنسة صورة زوج السيدة وفقاً عينها فحلّ محلها خرق قبيح شوه
الصورة كلها ولا بدع فالعين زينة الوجه ونافذة النفس في الجسم. فايقنت
الفتاة ان مولاتها ستطردها لا محالة حينما ترى صورة فقيدتها على هذه الحالة
ولا سيما وانها فقدته منذ دهرٍ قريب وكانت كل يوم تقضي ساعاتٍ امام
صورته وهي تتذكره وتبكي فحزنت الفتاة لذلك حزناً شديداً
وساقت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت ورداً وعضّت على العناب بالبرد

وبعد ان فكرت في الامر حيناً نزلت الى فناء الدار وتناولت حجراً وصعدت
فالقته في ارض الغرفة لتوهم مولاتها ان الجيران رموا بالحجر فاصاب عين
الصورة وقلعها ولكنها فطنت الى ان هذه الحيلة لا تجوز على عاقل ولا سيما
وانه ليس عند الجيران اولاد صغار فعمدت الى حيلة اللفظ وذلك انها
أخرجت من صدرها رسالة حبيبها وجعلتها غلافاً للحجر ووضعت هذه
الصورة عند اسفل الصورة وعادت مطمئنة البال موقنة بان سيدتها ستحسب
الرسالة مطيرة اليها على هذه الهيئة بلا غلاف ولا توقيع ثم اقفلت الغرفة
وذهبت تكمل عملها في الغرف الاخرى . ولما عادت مولاتها ويقال لها
ما دام دارساي مرّت في الردهة وهي ذاهبة الى غرفتها وسنحت منها التفاتة
نحو الصورة فعند ما رأتها مشوهة ذلك التشويه وقفت لديها حزينة وقد
اخذ منها الفيظ كل مأخذ ثم التفتت الى البساط فرأت الحجر الملقوف
بالورقة فتناولته وقرأت الرسالة فزاد غضبها وصاحت من ذا الذي يتجرأ على
مخاطبتي بمثل هذه اللغة . ثم اعادت قراءة الرسالة نخفّ ميزان غضبها ووجد
الحنوّ سبيلاً الى قلبها فراحت تفكر في معرفة صاحب الكتاب وظنّت
لأول وهلة انه أحد جيرانها فاستدعت خادمتها وسألتها عن الامر فتظاهرت
بالدهش والاستغراب واخذت تأسف معها على الصورة فسألتها عن الناس
الذين يسكنون تجاه المنزل فسرّدت لها اسماءهم حتى انتهت الى ذكر المصور
فقالت السيدة أظن ان هذا الفتى هو الذي اتى هذه القمعة . ثم صرفت
الخادمة وسارت الى غرفتها واستلقت على كرسي طويل وهي تنظر تارة
الى المرأة التي امامها وتارة الى الرسالة كأنها تقول في نفسها لا جرم ان جمالاً

كهذا يحمل الفتيان على مخاطبتي بمثل تلك العبارات الحبية الرشيدة
 وكان عمر هذه الارملة اثنتين وعشرين سنة اسيه كانت في شرح
 شبابها ومنتهى نضارتها وكانت قد أرملت منذ سنة بعد ان تزوجت ببضعة
 اشهر فاخذ الحزن من فؤادها كل مأخذ وامست تنظر الى المستقبل من
 وراء غيوم الغموم وتعتمد ان حياتها اصبحت ممزوجة بسوم الهوم ولكن
 النسيان يطير بالاحزان على جناح الزمان فلا تلبث عواطف النفس عند اول
 حادث جديد ان تفيق من سباتها ولا يلبث القلب ان يجدد عهد رغبته
 الماضي وزمان آماله الخالي وهكذا كان حال مادام دارساي حينما واقتها
 الرسالة على غير انتظار ولا حسابان فانها كانت ذابلة الجفون كثيرة التهد
 تضحك وتبكي في ساعة وتغضب وترضى في لحظة وكانت قد عدلت عن
 الاختلاط بالناس بعد إرمالها ومالت الى الشعر والموسيقى والتصوير وما اشبه
 ذلك من الملاهي العقلية فلذا عند ما اطلعت على الرسالة استدلت من حسن
 انشائها وكتابتها على أن صاحبها فتى اديب اريب رقيق العواطف شعري
 التصوير سامي المدارك وكانت قد تلت الرسالة لماشر مرة وغضبها قد زال
 تماماً وحل محله ميل شديد الى معرفة صاحبها وشعرت ان نفسها آخت
 نفسه وعواطفها انطبقت على عواطفه ولكنها لم تكن تستطيع ان تجيب
 على رسالته فارتأت ان تتحقق اولاً هل المصور جارها هو كاتبها ثم تسعى
 الى استكشاف ضميره والاطلاع على سريره ووجدت ان اقرب وسيلة
 الى ذلك هي ان تدعوه الى اصلاح الصورة التي كان هو سبب تشويهها
 ولكن دون ارادته . فكتبت اليه رسالة في هذا المعنى ودفعتها الى الخادمة

فانطلقت بها الى حانوت المصور فلما قرأها اخذ ورقة كالورقة التي خط عليها الرسالة الغرامية واجاب بانه يتأسف لكونه لا يستطيع ان يجيب دعوة السيدة لأنه مصور مناظر لا مصور اشخاص وسلم الرسالة الى الخادمة . فلما اطلعت عليها سيدتها ورأت ان ورقها وخطها مثل الرسالة الأولى تماماً حارت في الامر حيرة شديدة وتعجبت كيف ان فتى يقدم على مخاطبتها بتلك الصفة التي تدل على نهاية الجسارة والوقاحة ثم يحجم عن مواجهتها ويتعلل بعذر فارغ عند ما تطلب مواجهته

ومضت ايام بعد ذلك وخاطر السيدة مشتغل بالمصور ليلاً ونهاراً وقد علمت من ربة منزله بواسطة الخادمة انه شاب حسن السيرة دمث الاخلاق وانه يتغيب احياناً ثم يعود وثيابه مكسوة بالنبار ووجهه ملوح بحرارة الشمس وتحت ابطيه ازهار متنوعة وانه يحب المطالعة وعنده مكتبة حافلة بالكتب ومعيشته تدل على رقة حاله وقلة مكسبه . فزادتها هذه الاخبار عنه اهتماماً بامرهِ وميلاً الى معرفة كل احواله فسارت الى أحد تجار الصور وسألته ان يريها صورة من صنع المصور جان وقالت له انني أقدر صناعة هذا الشاب حق قدرها وأريد الحصول على صورة من عمل يده . فقال التاجر ذلك امر سهل على شرط ان تدفع لي ٥٠٠ فرنك فدفعت له الفاً واوصته ان ينتقي لها صورة على حسب ذوقه . ثم قالت له اني اسافر كل سنة الى ليشون وهناك مناظر بديعة تشوق الشاعر والمصور فما رأيك في كتاب عنها يؤلفه احد كبار الكتاب ويزينه جان برسومه وانا أقوم بنفقاته تحت اسمك . فاجاب فكر جليل وعمل بديع وانا اتكفل

به وابذل جهدي في سبيله . فطلبت ورقة وكتبت عليها تحويلاً بستة آلاف فرنك ودفعتها الى التاجر وقالت له خذ هذا التحويل واعتبره حساباً جارياً بيننا فادفع له نصف الاجرة وعده بالنصف الآخر بعد اتمام العمل وانصرفت والتاجر يتعجب من سخاها ويقول لله ما يفعل العشق في قلوب الحسان . ثم ركب عربة وسار الى محل المصور وابتاع منه صورة بالف فرنك دفعها اليه نقداً فاحمر وجهه الاصفر كأن ماء الحياة عاوده او دم الرجاء سرى في عروقه . ثم ذاكراه في امر الكتاب المصور ودفع له من قية عمله مقدماً خمسة آلاف فرنك واوعز اليه بالسفر حالاً الى محل المناظر التي ينبغي ان يصورها لتزين الكتاب وقفل راجعاً الى حانوته وجان يتأمل في الاوراق المالية وهو يظن نفسه في حلم لا في يقظة . ثم طفح السرور عليه فطفق يبكي كولد صغير حتى اذا ذهبت سكرة القرح ضم الاوراق وسار ليتنزه في غاب بولونيا وهو يتغنى في الطريق كالبلبل الولهان وفي تلك الليلة ذهب لحضور التمثيل في الاوبرا وهي اول مرة فعل ذلك في حياته . وكان قد التقى في اثناء نزته بجارته وخادمتها وحياهما من بعيد فأثرت هذه المواجهة في نفسه وأوجدت فيه عاطفة نحو السيدة لم يكن يجدها قبلاً حتى انه نام وفكره لاه بها وصورتها تتخلل منامه . ولما اصبح ذهب الى تاجر الصور واخبره بانه مسافر الى ليشون ثم عاد فجوز نفسه بما يحتاج اليه وفي المساء حمل حقيبته وسافر وكان في اثناء سفره يصور ما يشاهده من المناظر الطبيعية البهيجة حتى بلغ مكاناً يشرف على وادٍ فسيح وسهل في آخره شلال ماء فنزل بفندق رجلٍ اشهر بصيد

الدب حتى جعله صيادو هذا الوحش شيخهم وزعيمهم
وفي ذات يوم ذاع بين اهل تلك الناحية ان دُبَّةً تسطو على المراعي
وتقتس الغنم فلا يقدر راعٍ على مقاومتها ولا صيادٌ على قتلها فجمع شيخ
الجهة طائفة الصيادين واوعز اليهم بان يتألبوا على قتلها وكان بينهم صاحب
الفندق فدعا جان الى مرافقته وذهبت الجماعة في فجر النهار حتى وصلت
الى مقر الدبة . وكان هنالك عين ماء لطيفة رأى جان عندها امرأة ذات
قامة رشيقة ومعهما دليل نفخق قلبه حين رؤيتها وظنها سائحة انكليزية . ثم
شرع الصيادون يتسلقون الروابي وهم سكوت حتى اذا بلنوا الطريق تفرقوا
في كل جهة مثنى وثلاث ورباع والمرأة تتبعهم مسرعةً خطاها وعلى وجهها
نقاب اذكن اللون ويدها مخرصة لطيفة الشكل حتى وقفت على مسافة
عشرين خطوة من المصور . وانهم كذلك اذ صاح صاحب الفندق خذوا
حذرکم وأحكموا رميكم فاستندت المرأة الى صخر وحشا جان بندقيته وبعد
قليل اطلق الفندق عياره وتلاه صراخ امرأة فالتفت المصور مذعوراً
فراى الدبة قد دنت من السائحة والدليل يهول عليها بهراوته وكان احد
جرائها قد قتل بذلك العيار فهاجت وهجمت هجوماً مخيفاً فدعرت المرأة
وسقط نقابها عن وجهها فتفرس فيها المصور واذا هو يرمى وجهه مادام
دارساي وقد علاه اصفرار الرعب والذعر . فتعجب من وجودها في ذلك
المكان ثم صوب بندقيته واطلقها على الدبة وهي تحاول ان تقتس الدليل
وتمزقه فاصابت الرصاصة قلبها فوقعت مضرجةً بدمائها . فصاح الصياد
لا شلت يمينك يا جان ثم صاح بالدليل تقدم واسق هذا البطل جرعةً من

الشراب الذي معك فهرع نحوه و قدم اليه زجاجته ف شرب منها جرعة كبيرة من الروم فانتعشت نفسه وعادت اليه عزيمة وهروا الى ناحية السيدة وكانت قد عادت الى رشدها فالت عليه نظرة ارتجت لها جوارحه وملأت بسحرها جوانحه فاستعلم بلطف عن حالها و قدم اليها ذراعه بحركة كلها ظرف وكياسة فلم يسمعها ان ترفض مرافقته وسارت وياه وهي تشكره على صنيعه وتثني على بسالته واقدامه وهو يشعر بقلبها يخفق تحت ابطه كأنه مجرى كهربائي متصل بينه وبينها . ثم احاط بهما الصيادون واهل ذاك الجوار وصنعوا مأدبة فاخرة اجلسوا جان في صدرها وجلس عن يمينه صاحب الفندق وعن يساره دليل السيدة وهذه جلست ازاءه . وسار بعض الناس يحملون الخبز الى ليشون فميا اهلها مركبة زينوها باغصان الشجر وساروا بها الى مكان الاحتفال فاركبوا المصور فيها مع صاحب الفندق ومادام دارساي وانطلق الموكب على هذه الصورة حتى اذا بلغ نصف الطريق تلقاه شيخ البلدة ومعاونه وجماعة من الاهلين ووضعوا جثة الدبة وجروها على مركبة وساروا تتقدمهم الموسيقى ورجال الشحنة وسكان تلك الناحية ودخلوا البلدة بين اصوات الهتاف واطلاق البنادق والناس كلهم مطوقون جان بابصارهم كأن عليه من حدق نطاقا . اما هو فكان همه الاول حين وصوله ان يصحب حبيبته الى مقرها فاعتذرت اليه واخبرته بانها راجعة في مساء ذلك النهار الى باريز حيث تسربان تراه في منزلها لتجدد له عبارات شكرها . فحياها وسار الى فندقه وهو لا يعلم انها قضت ثلاثة اسابيع تستقصي اخباره وتستطلع طلع حركاته وسكناته .

دون ان يدري حتى عرفت انه النقي الذي يليق بها ان تحبه وتثق بامانه ووفائه . وكل حسن اعتقاد بما به عندما رآته جامعا بين لطف الشمايل وبين الشجاعة والحزم والمرأة تحب الرجل لثلاث خصال المال والجمال والشجاعة فايقت بعد الذي جرى انها محبة محبوبة فاجمت على ان تهب قلبها لمن منحها قلبه وانقذ حياتها وان تصطنع حليلا لها . وانذاك كان اول ما انصرفت اليه عنايتها بعد رجوعها الى باريز انها اذاعت خبر الصيد في جميع الجرائد فجعل الاغنياء يطلبون صور جان من كل ناحية واذاع التاجر خبر الكتاب المتقدم ذكره فتهافت الناس على اقتنائه قبل دليعه .

ولما عاد جان الى باريز اخذ الناس يهشون به بفوزه ويحذرون في صناعته ويدفعون اثمانا غالية لشراء رسومه فحذل صندوقه بالمال ونال شهرة بعيدة . وحين وصوله زار جارتة الحسناء المحسنة فتأكدت بينهما اسباب المحبة والولاء . وكثرت من ذلك الحين مواعد القرب واللقاء . حتى اذا دنا وقت القران وعلمت الخادمة بالامر اعترفت لسيدتها بما كان من امر تلك الرسالة والحيلة التي عمدت اليها لاختفاء ما صنعت مكنتها ففهرت لما ذنبها ان كان يعد بعد الذي جرى ذنبا ووهبتها صداقا وافرا لتمكنها من التزوج بذلك المحب الذي كانت رسالته سببا في سعادته وسعادة من كلفه كتابتها كما كانت عين النقييد — رحمه الله — سبب السعادتين جميعا لانها قلمت بعد مماته فاشرق منها نور السعد والنسيم وكانت كذلك الشعر العربي الشهير الذي قلمت عيناه فابصر . . . والاقدار قد تأني بالعجائب ولله احكام حارت فيها عقول الفلاسفة ومدارك الحكماء